تحرير الإنسان
وتجريد الطغيان

دراسة
في
أصول الخطاب السياسي
القرآني والنبوي والراشدي

بقلم د. حاكم المطيري

(إن ما جئت به يا محمد مما تكرهه الملوك!)

المثنى بن حارثة الشيباني

(منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا!)

عمر بن الخطاب

فالله فوق العرش جل جلاله
والناس تحت لوائه أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة
والأمر شورى والحقوق قضاء

أحمد شوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب:

الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم وسلم على النبي الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

يعيش المسلمون اليوم والعرب خاصة الذين يمثلون قلب العالم الإسلامي دينيا وجغرافيا وحضاريا وسكانيا أسوأ صور العبودية لغير الله ، هذه العبودية التي تتجلى اليوم في خضوع أكثر شعوبهم وخنوعهم شبه المطلق للطغاة ، في فترة تعد الأشد ظلما وشقاء في تاريخهم كله ، حيث يخضع نحو ثلاثمائة مليون عربي من الخليج إلى المحيط كعبيد بلا أغلال تحت سيطرة أنظمة حكم هي من أسوء الأنظمة السياسية في العالم ، وأكثرها ظلما وفسادا ، وفتكا بشعوبها واستبدادا ، وأشدها تخلفا في مجال الحريات السياسية العامة وحقوق الإنسان ، كما أكدته التقارير الدولية ، وأكثر الأنظمة فسادا إداريا وماليا ، في ظل دويلات طوائف ضعيفة كان للاستعمار الغربي منذ الحرب العالمية الأولى إلى اليوم اليد الطولى في تشكيلها وإيجادها ، ورسم حدودها ، واختيار أنظمتها وحكوماتها ، ليصبح العرب الذين حرروا العالم من طاغوتية كسرى وقيصر ، ورفعوا شعار (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ، وفتحوا العالم (ليخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل القرآن) أكثر شعوب العالم اليوم عبودية لعصابات إجرامية ، وأنظمة حكم إقطاعية ، ما كان لها أن تسيطر عليهم وتسومهم سوء العذاب على هذا النحو الخطير ، لولا انحطاط ثقافتهم ، وضعف عزيمتهم ، وشيوع خطاب سياسي وثقافي وديني سلطاني ممسوخ يسبح بحمد الطغاة تعظيما وتمجيدا!ويجعل من الخنوع لهم دينا وتوحيدا!

ولا سبيل لتحرير الأمة من أغلال عبوديتها ، ودك عروش طغاتها ، إلا بتجديد دينها ، واستثارة همتها ، فهي الأمة التي اختارها الله لحمل رسالته ، فلا رب لها إلا الله ، ولا ملك إلا إياه ، ولا إله سواه ﴿رب الناس . ملك الناس . إله الناس﴾!

ولا مخرج لها مما هي فيه إلا بمواجهة هذا الخطاب السلطاني الذي عبدها للطغاة ، وبعث الخطاب القرآني الذي حررها باسم الله ، ومراجعة الأصول العقائدية التي أدت إلى فتور عزيمتها ، وسقوط حضارتها ، ومن ذلك الإجابة عن الأسئلة المشكلة حول الأصول العقائدية

التي أدى وقوع الخلل في فهمها إلى شيوع هذا الخطاب الديني السلطاني الذي يؤثر في واقع حياتها وأهم هذه الأسئلة :

من الرب الذي له السيادة على الناس؟

ومن الملك الذي له عليهم حق الطاعة؟

ولمن الملك في الأرض؟ ولمن الحُكم والفرض؟

وما الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب؟

وما هي الجاهلية التي جاء القرآن لتحطيم نظمها ، وهدم قيمها؟

وما معنى قول العرب للنبي ﷺ (إن ما جئت به مما تكرهه الملوك)؟

وما حقيقة النزاع بين الله وملوك الأرض حتى يقول جل جلاله يوم القيامة ﴿لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار﴾ ، ويقول (أنا الملك! أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)

وما حقيقة الصراع بين النبي ﷺ وقيصر وكسرى حتى اهتز لمولده عرشاهما ، وبشر بزوال ملكيهما ، وانتهاء حكميهما ، بقوله : (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده)؟

وما حقيقة التوحيد الذي جاء به القرآن؟ وما علاقته بالحرية؟ وما معنى العبودية؟ وما الشرك الذي ندد به وأبطله؟

وما الأصول العقائدية الإيمانية التي يقوم عليها الخطاب السياسي الإسلامي القرآني والنبوي والراشدي؟

كل هذه الأسئلة والإجابة عنها هي موضوع هذا الكتاب الذي بين يديك ، اجتهدت في عرض بيناتها ، وحل مشكلاتها ، جوابا عن كل ما وجه لي من أسئلة ونقد بعد صدور كتابي (الحرية أو الطوفان) ، الذي كان دراسة موضوعية عن الخطاب السياسي الإسلامي ، ومراحله التاريخية ، حيث قسمته إلى ثلاث مراحل ، مرحلة الخطاب المنزل من ١ إلى ٧٣هـ ، ومرحلة الخطاب المؤول من ٧٣هـ إلى سقوط الخلافة العثمانية ، ومرحلة الخطاب المبدل من سقوط العالم الإسلامي تحت الاستعمار الغربي إلى اليوم ، وقد اختلفت مضامين الخطاب وتباينت فيما بين هذه المراحل الثلاث تباينا واضحا ، وافترقت افتراقا فاضحا ، وقد اجتهدت في تحديد بداية كل مرحلة ، وذكرت من الشواهد التاريخية التي تؤكد طروء الاختلاف في الخطاب السياسي ما يؤكد صحة ما ذكرته لكل مرحلة من تقسيم وتصنيف ، وتسمية وتوصيف ، حتى بدا واضحا جليا لكل من اطلع على الكتاب ما بين تلك المراحل من التباين والاختلاف في الخطاب السياسي السائد في كل مرحلة ، وأبرز ملامحه ، مع العلم بأن نهاية كل مرحلة تكاد تكون توطئة للمرحلة التي تليها لطروء التغير في آخرها

تمهيدا لظهور خطاب جديد يتشكل ويتجلى في بداية المرحلة الجديدة بعدها ، ومن هنا تختلف النظرة في تحديد كل مرحلة تحديدا زمانيا باختلاف العبارات ، وتباين الاعتبارات ، إلا أن المقصود هو الخطاب السياسي وتمايزه في كل مرحلة عن التي قبلها ، وليس المراد على كل حال التحديد الزمني لكل مرحلة في حد ذاته!

وقد دار حول كتاب (الحرية أو الطوفان)جدل كبير ، ورأيت أن أتبعه بكتاب ثان يجيب عن الأسئلة التي أوردها علي كثير من أهل العلم والرأي ، يعالج الإشكالية التي يواجهها الخطاب السياسي الإسلامي ، خاصة في الجانب العقائدي ، وهو الأساس الذي يقوم عليه الخطاب السياسي التشريعي ، وقد كنت أظن وأكذب الحديث الظن أن الأساس العقائدي من الوضوح بالمكان الذي لا أحتاج فيه إلى تفصيل القول ، حتى ظهر لي بعد صدور (الحرية أو الطوفان) ما لم يكن في الحسبان!وهو أن جذور الأزمة تتجاوز الخطاب السياسي العملي إلى الخطاب العقائدي ، وهذا يكشف مدى ما تواجهه الأمة من أزمة فكرية وثقافية كبرى ، كان هذا الواقع السياسي المتخلف ، الذي يعيشه العالم الإسلامي ، والعالم العربي على وجه الخصوص ، مظهرا من مظاهرها ، والذي هو ثمرة خطاب سياسي سلطاني استبدادي جاهلي شكل ثقافة الأمة على نحو خطير عقودا طويلة ، بما يحقق له الثبات والاستقرار ، وقد وظف لتحقيق ذلك كل ما لديه من إمكانات كبيرة ، لسيطرته على أنظمة الحكم ، ومؤسسات الدولة في كل قطر أقامه الاستعمار فيها نيابة عنه ، حيث وظفها لخدمة خطابه السياسي الشرعي المبدل ، الذي ولد ، ونشأ ، وترعرع في أحضان الاستعمار الغربي للعالم العربي والإسلامي كما بينته في (الحرية أو الطوفان) بعيدا عن دين الأمة ونظمها ، وخارج ثقافتها وقيمها ، حتى استوى عوده ، واشتد ساعده ، وكان الدين المبدل أحد أهم أدواته لتنفيذ برامجه ومخططاته ، فتم توظيفه لخدمة الأنظمة واستبدادها ، ولتبرير ممارساتها وفسادها ، ولإخضاع الشعوب لها باسم الله ، لما للدين من سلطان على القلوب والنفوس ، حتى زعم فرعون أنه يخاف على دين الشعب المصري كما حكى القرآن عنه ﴿ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾![1]

وقد نجحت تلك الأنظمة بسيف المحتل وذهبه في توظيف القوى السياسية والاجتماعية في خدمة مشروعها ، فانبرى للدفاع عن خطابها السياسي وتسويقه وإضفاء الشرعية عليه سماسرة الفكر والسياسة والثقافة والأدب في كل بلد على اختلاف توجهاتهم وتباين تياراتهم ، يختلفون ويتنازعون في عقائدهم وآرائهم أشد الاختلاف ، ويجتمعون تحت ظل عروش سادتهم ، وأولياء نعمتهم ، فإذا هم سدنة لعروش الطغاة ، وسحرة لهم ، يسبحون

---

(١) سورة غافر ٢٦ .

بحمدهم ويمجدونهم ، ويتصدون لكل من يخرج عن طاعتهم ، بالفتوى والقصيدة والمقالة! فإذا قصة فرعون وسحرته تعود من جديد ، تارة باسم العلمانية والتجديد ، وتارة باسم الدين والتوحيد!

الخطاب السياسي وأثره على الواقع:

وتكمن خطورة الخطاب السياسي في أنه هو الذي يرسم الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، في كل دولة ومجتمع إنساني ، وهو الذي يشكله ، ويحدد حدوده ، وما الواقع في أي دولة ومجتمع إلا صورة حية لمضامين الخطاب السياسي للنظام الذي يسوده ويحكمه ، ويديره ويتحكم فيه ، ولمبادئه وقيمه التي يقوم عليها هذا الخطاب السياسي أو ذاك .

فقد كان واقع المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام وواقع الأمم الأخرى التي أصبحت جزء من العالم الإسلامي بعد ذلك يعكس صورة الخطاب السياسي الذي كان يتحكم في إدارة شئون تلك المجتمعات قبل ظهور الإسلام ، حتى إذا جاء الإسلام بخطابه العقائدي ومضامينه الإيمانية ، وخطابه السياسي ومضامينه الإنسانية ، فإذا واقع تلك المجتمعات يتغير تغير جذريا لا عهد لتلك الأمم به ، وإذا برعاة الشاء والإبل ، والعرب الأجلاف في صحراء جزيرة العرب ، يخرجون على الأمم يحررون الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ويخرجونهم من جور الأديان ، وعسف الطغيان ، على يد كسرى وقيصر ، إلى عدل القرآن ، وإلى القسط والميزان ، بعدما جاء خطاب سياسي جديد يسعى إلى تحرير الإنسان ودك عروش الطغيان .

فكان الواقع العربي الجاهلي قبل الإسلام ، نتاج خطاب سياسي جاهلي لا يؤمن برسالة في الحياة ، ولا يرى ضرورة للوحدة والأمة والجماعة ، ولا للدولة والسلطة والطاعة ، ولا يأبه بالحرية والعدل والمساواة .

وما كان ذاك التحول الجذري للمجتمع العربي الجاهلي ليتحقق لولا ظهور خطاب سياسي جديد ، له أصوله العقائدية ، وقواعده التشريعية ، وأحكامه التفصيلية ، وغاياته ومقاصده ، وكان لغيابه بعد ذلك ، وطمس معالمه أكبر الأثر فيما حدث من تراجع في حال المجتمع الإسلامي ، حتى وصل الحال إلى ما هو عليه اليوم من جاهلية[1] وضعف ، وطغيان وعسف ، وقابلية للاستبداد الداخلي ، والاستعمار الخارجي على نحو خطير لا نظير له في

---

(١) الجاهلية ليست مرحلة تاريخية وحسب ، بل هي أيضا حالة اجتماعية وبشرية توجد بوجود أوصافها وتتمثل في الجاهلية العقائدية وتصوراتها وظنونها كما قال تعالى (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) ، وفي الجاهلية التشريعية وأحكامها ونظمها كما قال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما ==

الأمم الأخرى!

وقد عبر عن هذا الواقع المتخلف للعالم الإسلامي عند سقوط الدولة العثمانية الكاتب الفرنسي روجر لوبون في مقاله المنشور في الصحافة الفرنسية سنة ١٩٢٣ موضحا جذور الخطاب السياسي المبدل الذي آل بالعالم الإسلامي إلى هذه الحال ، حيث قال مخاطبا حكومته وداعيا إياها إلى استخدام القوة مع المسلمين : (إن الإسلام – أي المبدل – يحتم على أتباعه الاستسلام للقوة ، ويجعل القوة خاصية إلهية تجب طاعتها ولو كان صاحبها كافرا ، فالقوة من الله ، ومن الذي يستطيع أن يناهض قوة الله؟ إن هذا المشرب هو السبب الوحيد فيما نجده من انقياد أشد الأمم الإسلامية للفاتح الأجنبي ، فالإسلام لا يخضع بفطرته إلا للسلطة القاهرة ، والسلطة والعلو عنده توأمان ، وعندما كانت أوربا متحدة وكان هناك ما يسمى بالمجتمع الدولي ، كانت مكانة أوربا فوق أن تنازع ، وكانت الشعوب الإسلامية واحدا بعد واحد تلقي سلاحها ، ولم يكن ثمة من يرفض منها إلا بعض حركات عارضة ، وثورات منحصرة ، ولما جاءت الحرب الكبرى ، كنت ترى البنجابي والبنغالي والمصري والأعراب والبربر والمراكشيين يتجندون تحت رايات دول الحلفاء ، وأن مليونا ونصف مليون مقاتل من المسلمين قاتلوا ببسالة عساكر خليفة اسطنبول ، بل تبارى المشايخ في مراكش والمغرب على نشر الفتاوى المضادة لأبناء ملتهم من الأتراك ، وعندما وقف جيش الإنجليز عند الفرات كانت أراضي الدولة العثمانية تموج بالعساكر الإسلامية المقاتلة تحت ألوية الحلفاء ، ولم يستمع أحد لفتوى شيخ الإسلام ، وكان الشرق كله يتوقع حكم أوربا ، وكان موطنا نفسه على الطاعة لها)[1]!

== لقوم يوقنون) ، وفي الجاهلية الاقتصادية والمالية كما قال ﷺ (كل أمر الجاهلية موضوع وكل ربا الجاهلية موضوع) ، وفي الجاهلية الأخلاقية وممارساتها وسلوكها كما قال تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) ، وفي الجاهلية الاجتماعية وظلمها وطبقيتها وعصبيتها كما قال تعالى (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ، ومما يؤكد أن الجاهلية وصف وحال يقوم بمن اتصف به قول النبي ﷺ للصحابي أبي ذر الغفاري حين عير رجلا فقال يابن السوداء!فقال له النبي (يا أبا ذر!أعيرته بأمه إنك امرؤ فيك جاهلية) ، فكل مجتمع تسوده هذه الأحوال الجاهلية حتى تغلب على شئون حياته يصدق عليه أنه مجتمع جاهلي ، ولا يقتضي ذلك الحكم على أفراده بالردة ، وقد كانت مكة مجتمعا جاهليا مع وجود النبي ﷺ وهو أشرف الخلق قاطبة وأصحابه فيها قبل الهجرة .

(١) انظر حاضر العالم الإسلامي لستودارد وتعليق أرسلان ط٤ ١/ ٣٠٧ . وتأمل تكرار الحال نفسها اليوم!وقد فصلت القول في هذه القضية الخطيرة التي نتج عنها هذا الواقع السياسي الذي نعيشه في كتابي (الحرية وأزمة الهوية في الخليج والجزيرة العربية) وعسى أن يصدر قريبا بإذن الله .

وما ذكره هذا الكاتب الفرنسي يكشف بوضوح مدى خطورة الخطاب الديني السياسي الذي ساد العالم الإسلامي قبيل الحرب العالمية الأولى!

لقد كان واقع فرنسا السياسي والاجتماعي قبل الثورة الفرنسية التاريخية سنة ١٧٨٩م ، تعبيرا عن خطاب استبدادي طبقي إقطاعي ، كان يسود فرنسا ، ويسيطر عليها ، ويحكمها ، ويتحكم فيها ، وقد شكل ذلك الخطاب واقع المجتمع الفرنسي ، سياسيا ، واقتصاديا ، وثقافيا ، واجتماعيا ، بما يتوافق مع مبادئه ، وقيمه ، ومفاهيمه ، التي يقوم عليها ذلك الخطاب ، والذي عبر عنه الملك لويس الرابع عشر بقوله (أنا الدولة) بأرضها وشعبها وسلطاتها!

حتى إذا جاءت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م ، بخطابها السياسي الجديد الذي يرفع شعار حكم الشعب ، وحقوق الإنسان ، إذا بالواقع الفرنسي كله يتغير تغيرا جذريا ، بما يتوافق مع الخطاب الجديد ومضامينه الإنسانية ، ولتصبح فرنسا بعد الثورة ، في كل شئونها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والفكرية ، شيئا آخر تماما ، يختلف عما كان عليه حالها من قبل ، لا لشيء إلا لأن هناك خطابا سياسيا وليدا ، بدأ يخلق واقعا فرنسيا جديدا ، تتشكل فيه صورته ومعالمه ، كما تمليه على الواقع قيمه ونظمه!

وكان شأن الثورة كما عبر عنه فيكتور هيغو شاعر فرنسا وأديبها بقوله كما في روايته البؤساء : (الثورة تقود إلى الأمام)[١]!

وكذا كان حال المجتمع الأمريكي قبل الثورة ، وحاله بعد الثورة ، والتحول الجذري الذي حدث له ، لقد اختلف الحالان ، حين اختلف الخطابان ، فصار الشعب الأمريكي الذي كان يهتف لملك انجلترا قبل الثورة ، ويخضع لتاجه وصولجانه ، ويخنع لطغيانه وسلطانه ، يهتف بعد الثورة باسم حريته واستقلاله ، ويكافح لنيلها ، ويموت من أجلها ، فكان كل من الحالين ، صورة واقعية لكل من الخطابين!

وكذا كان حال واقع المجتمع الروسي الإقطاعي ، قبل الثورة البلشفية سنة ١٩١٧م ،

---

(١) يفرق هيغو بين الثورة والفتنة في النتائج ، فالثورة عنده تقود المجتمع للأمام ، والفتنة تفضي به إلى التراجع للوراء!

وأقول هنا يجب التأكيد بأن الفرق بينهما في الأساس هو في الأهداف والغايات ، فالثورة يقوم بها العظماء والمصلحون لمصلحة شعوبهم وأممهم ويضحون بأنفسهم في سبيل غاية شريفة وقضية نبيلة وهي رفع الظلم عن شعوبهم وتحقيق العدل بينهم كثورة الحسين بن علي ، أما الفتنة فيقوم فيها الطامعون المجرمون بقصد تحقيق مطامعهم الخسيسة على حساب شعوبهم ليمارسوا من الجرائم ما مارسه من كان قبلهم من الطغاة! فالثورة صراع على السلطة بين قضيتين ومشروعين سياسيين ، والفتنة صراع على السلطة بين عصابتين إجراميتين!

وواقعه بعد الثورة وعصرها الشيوعي الاشتراكي ، التي تحول بسببها المجتمع الروسي من طور إلى طور آخر .

ومثلها الثورة الصينية ، والتحول الجذري الذي حدث بسببها للدولة والمجتمع بعدها ، والبون الشاسع بين واقع الصين الإقطاعي قبل الثورة الشيوعية ومشروعها الاشتراكي ، وواقعها بعد الثورة .

وكذا ما حصل لتركيا بعد سقوط الخلافة وحكم أتاتورك ، وما جرى فيها من تحولات سياسية واجتماعية وفكرية كبرى ، وكأن الأمة ليست الأمة ، وليست الأرض بالأرض ، ولا الشعب بالشعب ، فنسخت ثقافة بثقافة ، ودين بدين ، ونظام بنظام ، ولا سبب لذلك إلا كون كلا من الواقعين كان يعبر عن مضامين خطابين مختلفين ، ويعكس صورة مشروعين متناقضين ، شكل كل منهما الواقع كما تمليه عليه فلسفته ونظرته للدولة والمجتمع والإنسان .

وكذلك الحال في إيران الشاه قبل الثورة ، وإيران الخميني بعد الثورة ، حيث تغير واقع المجتمع الإيراني والدولة تغيرا جذريا سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، تبعا لتغير الخطاب السياسي الذي يسوسه ويسوده .

فمن ظن أن الخطاب السياسي كغيره من الموضوعات كالاقتصاد أو التعليم أو الثقافة أو الدين فقد ظن خطأ فادحا ، فالسلطة التي تحكم أي مجتمع هي التي تشكل اقتصاده وثقافته ودينه وواقعه وفق تصورها للمجتمع والواقع الذي تريده عليه ، ومن هنا تكمن خطورة الموضوع السياسي الذي يعالج مشكلة السلطة والحكم والتشريع .

إن كل التحولات التي حدثت في المجتمعات الإنسانية كانت نتاج تحولات سياسية فيها ، سواء كان للشعوب يد في هذا التحول ، كالثورة الأمريكية والإيرانية ، أو للنخبة والطبقة كالثورة الفرنسية التي قادتها الطبقة الوسطى البرجوازية ، أو للأحزاب كما في الثورة الروسية والصينية والثورات الشيوعية ، أو للعسكر كالانقلاب العسكري في تركيا ، ومصر ، والعراق ، أو الاحتلال الأجنبي الذي يأتي بالسلطة التي تحقق أهدافه كما جرى في أكثر بلدان العالم التي سقطت تحت الاحتلال ، وكما هو مشاهد اليوم في أفغانستان والعراق ، وما يجري فيهما من تحولات كبرى على يد السلطة التي فرضها الاحتلال في كلا البلدين ، وقد تنجح الشعوب والمقاومة فيها في إعاقته وإحباط مخططاته ، وقد تخفق على قدر رفضها ومقاومتها .

الشعوب وقدرتها على التغيير:

وإن التاريخ والواقع ليؤكدان أن للشعوب القدرة على التغيير ، كما للسلطة القدرة على التطوير أو التدمير ، فالمجتمعات الإنسانية تستطيع بصورة فردية أو حزبية أو جماعية تغيير

النظم التي تحكمها وهي المسئولة عن ذلك سواء بالثورات الشعبية ، أو بالانقلابات الثورية ، أو الضغوط السلمية ، غير أن مهمة تطوير المجتمع والدولة بعد ذلك يقع على عاتق السلطة ، فالحكومات هي التي تستطيع وحدها إصلاح واقع مجتمعاتها وتطويرها ، أو تجميدها وتأخيرها ، وهي المسئولة عن ذلك ، وليس الأفراد .

لقد جاءت الهدايات القرآنية ، لتؤكد هذه السنن الاجتماعية ، كما قال تعالى ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1] ، وقال في شأن فرعون وخطورة طغيان السلطة وشدة أثرها على المجتمع وتأثره بها ﴿وأضل فرعون قومه وما هدى﴾[2] ، ﴿واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾[3]!

فما كان ليتغير واقع تلك الشعوب في فرنسا ، وأمريكا ، وروسيا ، والصين ، وجنوب أفريقيا وغيرها من شعوب العالم ، لولا أنها غيرت ما بنفسها وواقعها ، بما يتوافق مع طموحاتها وتطلعاتها ، نحو مستقبل أفضل لها ، ولأجيالها ، وهي سنن إلهية اجتماعية في التغيير ، لا تتبدل ولا تتحول ، بل تجري على كل أمة ، من أي ملة ونحلة ، وكما قال تعالى ﴿فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾[4] .

القيم الجاهلية والنظم الطاغوتية:

لقد جاء الإسلام بالعدل والقسط ليهدم الجاهلية وظلمها ، وثقافتها ونظمها ، ودينها وقيمها ، حتى قال ﷺ في خطبة حجة الوداع التي حدد فيها معالم الطريق للأمة (ألا كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين ، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع)[5] ، فإذا الجاهلية والوثنية تعود من جديد بكل مظاهرها ونظمها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، لتتحكم في واقع المجتمع الإسلامي من جديد!

فإذا الطاغوت يستعبدها من جديد ، ويتحكم فيها ، ويسوس أمورها ، ويشرع لها ، ويحكم بينها ، وإذا الربا الصريح ينتشر بمؤسساته في كل بلدانها ، لتجاور مؤسساته العالمية المساجد جنبا إلى جنب حتى في البيت الحرام ، حيث تم الإعلان النبوي عن إبطال ربا

---

(١) سورة الرعد ١١ .

(٢) طه ٧٩ .

(٣) هود ٩٧ .

(٤) فاطر ٤٣ .

(٥) صحيح مسلم ح ١٢١٨ ، وأبو داود ح ١٩٠٥ ، وابن ماجه ٣٠٧٤ ، وأحمد في المسند ٧٢/٥ ، وابن خزيمة في صحيحه ٤/ ٢٥١ .

الجاهلية وكل أمور الجاهلية[1]!

وإذا الظلم والتظالم والطبقية والاضطهاد الديني والفكري والسياسي والطبقي يشيع في واقعها على نحو غير مسبوق!

لتتعايش الجاهلية الجديدة مع الإسلام الجديد في ظل جبروت السلطة وطغيانها ، ومداهنة أحبارها ورهبانها!

لقد ظن الجاهليون الجدد أن الجاهلية التي جاء الإسلام لهدمها هي جاهلية مشركي العرب فقط ، لا كل جاهلية كانت عليها البشرية قبل البعثة النبوية ، وظنوا أن الصراع هو مع اللات والعزى ، وليس مع قيصر وكسرى ، فإذا غابت اللات والعزى فقد زالت الجاهلية ، فإذا بالجاهلية الكسروية والقيصرية التي عرفتها الأمم الأخرى ، وإن لم يعرفها العرب في الجاهلية ، تعود من جديد ، وليصبح الناس عبيدا للجبت والطاغوت ، من حيث يظنون أنهم مؤمنون موحدون!ولتقوم جاهلية جديدة على أنقاض جاهلية العرب القديمة باسم الدين الذي جاء ليبطل كل صور الجاهلية العربية والأممية!ولتصدق النبوءة (إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)[2] ، وفي رواية قيل من هم؟ قال : (الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي)[3] .

لقد قال النبي ﷺ عن أبي جهل يوم قتله (كان هذا فرعون هذه الأمة)[4] ، ليؤكد أن الفرعونية لم تكن قاصرة فقط على فرعون مصر وطاغيتها في عهد موسى ، بل الفرعونية

---

(١) في الوقت الذي نجح الشيوعيون الملحدون في إلغاء الربا ومنعه كما في روسيا والصين والدول الشيوعية حتى في الدول العربية الاشتراكية سابقا كالعراق وسوريا لكونه ظلما يمارسه الأغنياء بحق الفقراء ، يعتذر أحبار الخطاب السلطاني عن حكوماتهم ودولهم التي تنتشر فيها بنوك الربا في كل شارع من شوارعها وعند كل مسجد من مساجدها بأنه لا يمكن منع الربا في هذا العصر حيث يقوم عليه الاقتصاد العالمي وكأن الله لم ينزل بشأن الربا وتحريمه قوله (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) ، فاستجاب الشيوعيون حين نكص المسلمون!

(٢) مسلم في صحيحه ح رقم ٢٣٢ ، والترمذي ح رقم ٢٦٢٩ ، وابن ماجه ح ٣٩٨٦ – ٣٩٨٨ من حديث ابن مسعود وأنس بن مالك وأبي هريرة .

(٣) الترمذي رقم ٢٦٣٠ وقال (حديث حسن صحيح) .

(٤) أحمد في المسند ١/ ٤٤٤ ، و١/ ٤٠٣بإسناد صحيح إلى أبي عبيدة عن أبيه عبدالله بن مسعود وفيه خلاف في سماعه منه . ورواه البزار (١٨٦١) بإسناد صحيح إلى عمرو بن ميمون عن ابن مسعود ، وقوله (فرعون هذه الأمة) أي فرعون أهل ذلك العصر فالأمة تطلق ويراد بها الجماعة ويراد بها الفترة وهذا لا ينافي وجود فراعنة للأمم التي تأتي بعد ذلك كما هو واقع!

وصف قائم بمن اتصف بها ، وظاهرة قد تتكرر في أي عصر ومصر ، فكل مستكبر في الأرض بغير الحق فرعون يجب مقاومته ، وكل استكبار في الأرض هو فرعونية يجب تحطيمها!

وإذا كان أبو جهل قد صار فرعونا مع أنه لم يكن ملكا ، إلا لكونه كان جبارا على المستضعفين بمكة ، فكيف بالطغاة والجبارين الذين يستعبدون الملايين ، ويسومونهم سوء العذاب ، ويضطهدونهم ، ويستحلون دماءهم ، ويأكلون أموالهم ، ويجري في سجونهم ما لم يسمع بمثله في الأمم الخالية ، حتى إن فرعون على طغيانه سمح لموسى بمحاورته ومجادلته ، فلما قال له موسى ﴿أولو جئتك بشيء مبين﴾ ، قال فرعون ﴿فأت به إن كنت من الصادقين﴾[1] ، وواعده يوم الزينة ، فلما أغاظه استأذن قومه فقال ﴿ذروني أقتل موسى﴾!

فكيف بمن يقتلون ، ويسجنون ، ويعذبون ، ولا يُسألون عما يفعلون ، ولا هم يحزنون!

الحرية روح التوحيد:

لقد جاء الإسلام لتحرير الإنسانية كلها من كل أشكال العبودية لغير الله ، وجعل التوحيد شعار التحرير (لا إله إلا الله) ، فلا ملوك ، ولا قياصرة ، ولا أكاسرة ، ولا فراعنة ، ولا جبابرة ، كما قال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس﴾[2] ، فهو سبحانه وحده الرب والملك والإله .

لقد تم اختزال معنى التوحيد اليوم ، فلم يعد توحيد الله في الملك والسيادة (رب الناس . ملك الناس) موضوعا رئيسا في الخطاب الإسلامي المعاصر ، بل تم تعبيد الشعوب للملوك الطغاة ، والجبابرة العتاة ، فهم الأرباب لعبيدهم ، والملوك لشعوبهم ، وليس الله وحده الملك والرب لعباده جل جلاله!

إن الحرية هبة إلهية ، وضرورة إنسانية وإيمانية ، لا لأنها سبب في تطور الأمم ورقيها كما يتصورها الماديون ، فهذا التعليل يفقد الحرية قيمتها وأهميتها وضرورتها ، ويفتح الطريق للطغاة لاستلابها حين لا يتحقق التطور بسببها ، كما حصل في الدول الشيوعية ، وإنما تكمن قيمة الحرية في أنها غاية كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، إذ بالإيمان بالله وحده وإخلاص التوحيد له تتحقق (الحرية التي لا أرفع منها ولا أنفع)[3] ، ولأنها حق إنساني يولد مع الإنسان حين يولد ، بل لا معنى للإنسانية إلا بها ، ولا قيمة للإنسان من دونها ، وقد عبر عن ذلك الخليفة الراشد عمر بقوله (متى استعبدتم الناس وقد

---

(١) الشعراء ٣٠-٣١ .

(٢) سورة الناس ١-٣ .

(٣) كلمة للعلامة الشيخ عبدالرحمن السعدي في طريق الوصول القاعدة ٦١ من رسالة العبودية .

ولدتهم أمهاتهم أحرارا)[1] .

لقد كانت هذه الكلمة الإسلامية العمرية الراشدة إعلانا عن بداية عصر جديد للإنسانية كلها ، كان للإسلام السبق في افتتاحه ، وتشكيله وفق قيمه ومفاهيمه وتصوراته للحياة وللإنسان ، هذا الخطاب الذي كان له أكبر الأثر بعد ذلك في صحوة أوربا التي ظلت ترسف في أغلال العبودية قرونا طويلة قبل أن يسطع عليها نور الإسلام ، حتى إذا احتك علماؤها والمصلحون فيها ، بالعرب المسلمين ، وبحضارتهم وقيمها الإنسانية في الأندلس وصقلية ، وفي الشام ومصر إبان الحروب الصليبية ، فإذا حركات الاحتجاج الديني في أوربا تبدأ بالثورة ، متأثرة خطا الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي ، وإذا بها تدعو إلى تجديد الدين المسيحي ، والتحرر من أغلال الملوك ورجال الدين ، والعودة للكتاب المقدس مباشرة ، لتصبح البروتستانتية دعوة إلى التحرر والحرية ، والتي كان لها بعد ذلك أكبر الأثر في تغيير الخطاب السياسي في أوربا ، كما بدا واضحا جليا في خطاب الثورتين الفرنسية والأمريكية ، فإذا كلمة عمر بن الخطاب (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ، تصاغ في خطاب الثورة ، ثم في الدستور الأمريكي ، على النحو التالي : (يولد الناس أحرارا)!

وإذا الحرية التي هي روح التوحيد وغايته والتي كانت سببا من أسباب قيام الحضارة الإسلامية وازدهارها ، توأد في مهدها ، وتصادر في أرضها التي منها خرجت حيث حملها العرب المسلمون ونشروها في العالم كله ليحل محلها في أرض العرب ، ومهد الإسلام ، الظلم والاستبداد ، والعبودية لغير الله والإلحاد!

لقد كان للخطاب السياسي الإسلامي أصوله التي تم طمسها ، وتأويلها ، اتباعا للأحبار والرهبان ، ومشايعة لأهواء الملوك وذوي السلطان ، كما ورد في الحديث (لتتبعن سنن من

---

(١) إسناده صحيح ، أورده ابن الجوزي في مناقب عمر ص٧٣ عن أنس ، وهو في الجامع للمسانيد للسيوطي برقم (١٣٣٤) ، وكنز العمال برقم (٣٦٠١٠) ، وعزاه إلى ابن عبد الحكم المصري المتوفى ٢٥٧هـ ، وهو في كتابه فتوح مصر ص ١٦٧ ووقع في النسخة خلل وصوابه (كما حدثنا أي أسد بن موسى راوي الحديث الذي قبله عن أبي عبدة وهو يوسف بن عبدة بصري ثقة عن ثابت البناني وحميد الطويل عن أنس) ، في قصة طويلة بين عمر بن الخطاب والقبطي وعمرو بن العاص . وهذا إسناد صحيح ، فأبو عبدة ذكره الدولابي في الكنى تحقيق الفاريابي ٨٨٤/٢ ، وهو في تهذيب الكمال ٤٣٧/٣٢ ، واقتصر على قول يحيى بن معين في توثيقه ، ومن شيوخه ثابت البناني وحميد الطويل ، وأسد بن موسى ولد في البصرة سنة ١٣٢هـ وتوفي بمصر سنة ٢١٢هـ ، وسمع من تلاميذ ثابت وحميد كحماد بن سلمة وطبقته فلا يبعد سماعه من يوسف بن عبدة ، وله مؤلفات ومصنفات كثيرة فالإسناد صحيح مسلسل بالثقات الأثبات .

كان قبلكم فارس والروم)[1] ، وكما قال ناهيا ومحذرا أصحابه أن يفعلوا فعل فارس والروم (إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود فلا تفعلوا)[2] .

فإذا الأوثان البشرية تعبد اليوم من دون الله بدل الأوثان الحجرية ، بخضوع الشعوب المطلق لسلطانها الجائر باسم الدين ، بعد أن صارت كل مظاهر الوثنية والتأليه للسلطة أمرا مشروعا في الخطاب الإسلامي الرسمي والشعبي المعاصر[3]!

وقد تفاجأت بعد صدور (الحرية أو الطوفان)بأن المشكلة لم تعد في الأصول العملية الفقهية للخطاب السياسي ، بل تجاوزتها إلى الأصول العقائدية ، وهو ما اضطرني إلى تفصيل القول في هذا الباب ، في معنى توحيد الله ، ومعنى الشرك به ، ومعنى الدين ، ومعنى العبودية التي يجب صرفها له وحده ، ومعنى الحرية وعلاقتها بالتوحيد ، ومعنى الطاغوت ، وبيان منازعة الملوك والرؤساء لله في أخص خصائص وحدانيته ، وأنهم تألهوا وطغوا أشد من تأله وطغيان فرعون ، وأن أبرز مظاهر الشرك هو في عبودية الأمة اليوم للملوك والرؤساء ، وأنها عبودية كعبودية بني إسرائيل لفرعون أو أشد!

خطورة العبودية على المجتمعات الإنسانية:

لقد عانت كل المجتمعات الإنسانية من ظاهرة العبودية للأنظمة الطاغوتية على اختلاف صور تلك الأنظمة وأشكالها ، كما عبر عن ذلك المفكر الفرنسي لوبواسييه في كتابه (العبودية المختارة) بقوله (هناك ثلاثة أصناف من الطغاة : من يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب ليستبدوا به بعد ذلك أو من يملك بقوة السلاح ، أو بالوراثة المحصورة في سلالتهم ، وهؤلاء عادة ولدوا وأرضعوا على صدر الطغيان ، يمتصون جبلة الطاغية وهم رضع ، وينظرون للشعوب الخاضعة لهم نظرتهم إلى تركة من العبيد ، ويتصرفون في شئون المملكة كما يتصرفون في ميراثهم)[4] .

لقد تحدث المفكر الفرنسي (لوبواسييه) عن أوضاع فرنسا التي عاصرها قبل أربعة قرون ، وعن العبودية التي كانت تعيشها أوربا في ظل ملكياتها ، وهي شبيهة إلى حد التطابق بواقع العرب اليوم في ظل دويلات الطوائف ، حيث يقول (لا أفهم كيف أمكن هذا العدد من

---

(١) صحيح البخاري ح رقم ٦٨٨٨ .

(٢) صحيح مسلم ح رقم ٨٤ .

(٣) وانظر كيف يقبل الناس أيدي الملوك والأمراء ويخضعون لهم ويتذللون بين أيديهم أمام وسائل الإعلام بما لا يقع مثله اليوم حتى عند الشعوب الوثنية لتعرف مدى الانحراف الذي نعيشه باسم الإسلام!

(٤) العبودية المختارة ص ٦٣ بتصرف .

البلدان والأمم أن يحتملوا طاغية واحدا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ، ولا كان يستطيع إذاءهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته ، فترى الملايين من البشر يخدمون في بؤس ، وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر منهم ، وإنما سحرهم مجرد الاسم الذي ينفرد به الطاغية ، وكان الأولى بهم ألا يخشوا جبروته فليس معه غيره ، ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه إلا خلوه من الإنسانية ، إن ضعفنا نحن البشر كثيرا ما يفرض علينا طاعة القوة!أي تعس هذا! أي رذيلة هذه! أن نرى عددا لا حصر لهم من البشر لا أقول يطيعون بل يخدمون ، ولا أقول يُحكمون بل يستعبدون ، لا ملك لهم ولا أهل ، بل حياتهم نفسها ليست ملكا لهم ، ويحتملون السلب والنهب وضروب القسوة ، لا من جيش أجنبي ، ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده ، بل من واحد لا هو هرقل ولا شمشون ، بل هو في أكثر الأحيان أجبن من في الأمة ، وأكثرهم تأنثا!ومع ذلك فهذا الطاغية لا يحتاج إسقاطه إلى محاربته وهزيمته ، بل كاف الامتناع عن طاعته ، فالشعوب هي التي تترك القيود تكبلها ، أو قل تكبل نفسها بنفسها)[1] .

لقد أصبح الطغاة وأحبارهم ورهبانهم وسدنة عروشهم أربابا من دون الله ، وصارت الشعوب عبيدا لهم ، يسومهم الطغاة سوء العذاب ، وهم خانعون مستسلمون ، بعد أن تم توظيف الدين في إضفاء الشرعية على هذه الطاغوتية ، وحدث للمسلمين ما حدث للفرس والروم من قبل ، حتى صار الظلم والاستبداد أمراً طبيعيا ، بل يتلذذ به المظلومون الذين انتكست فطرتهم ، ليدافعوا عنه ، وليرفضوا كل دعوة لتحريرهم! كما قال تعالى في قصة فرعون وموسى ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [2] ، لقد استمرأ بنو إسرائيل العبودية ورضوا بها ، ولهذا لم يتبع موسى منهم إلا الشباب كما قال تعالى ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾[3] ، فكان عاقبة استكبار فرعون وعتوه وحرمانه بني إسرائيل من حريتهم كما قال تعالى ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان . . . وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها

---

(١) المصدر السابق بتصرف .

(٢) الأعراف ١٢٧ ١٢٩ .

(٣) يونس ٨٣ .

وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾![1]

فكانت دعوة موسى حركة سياسية دينية لتحرير الإنسان ورفض الطغيان ، فانتهت بـ (الحرية) لبني إسرائيل المستضعفين و (الطوفان) لفرعون وملئه المستكبرين!

لقد عبر عن استمراء الشعوب الأوربية للطغيان ، وتحمل أصناف العذاب ، باسم الدين لوبواسييه بقوله (إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبونه على رؤوسهم من العذاب ، لقد احتموا بالدين واستتروا وراءه ، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سندا لهم ، إن الطغاة كانوا يسعون دائما ليستتب لهم سلطانهم إلى تعويد الناس أن يدينوا لهم لا على الطاعة والعبودية فحسب ، بل بالإخلاص كذلك)[2] .

ولعل أشد آثار تلك العبودية وفقد الحرية خطرا على الطبيعة الإنسانية انعدام المروءة والشهامة ، واستمراء الذل والدناءة ، حرصا على الحياة ، وخوفا من الموت ، وهو ما يجعل تلك الشعوب أكثر قابلية للخنوع والخضوع للطغاة (إن السبب الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد هو كونهم يولدون عبيدا ، وينشأون على ذلك ، ويسهل تحولهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين ، وإنه بزوال الحرية تزول الشهامة)[3] .

وفي مقابل ذلك وليعوض الطغاة عبيدهم عن الحرية الحقيقية التي استلبوها ، فتحوا أمامهم الباب لحرية زائفة يمنحها الطغاة لشعوبهم بل عبيدهم ليلهوهم بها ، وليعيشوا وهم الحرية ، وحرية الوهم! (ويتجلى التحايل من قبل الطغاة على التغرير برعاياهم لاستعبادهم بفتح دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية ، فانصرف هؤلاء المساكين البؤساء إلى التفنن في اختراع الألعاب من كل لون وصنف ، لقد كانت المسارح والألعاب والمصارعون والميداليات واللوحات وغيرها من المخدرات لدى الشعوب طُعْم عبوديتها ، وثمن حريتها ، وأدوات الاستبداد بها)[4]!

إن الملأ المستفيدين من وجود الطاغية ، والمتنفذين بسلطانه ، من الساسة والعلماء وبطانة السوء هم من يرسخون نظام حكمه ، ويضفون الشرعية عليه ، ويذودون عنه ، تحت ذرائع المحافظة على الدين والأمن والاستقرار ، كما قال الملأ من قوم فرعون ﴿وقال الملأ من

---

(١) الأعراف ١٣٣ ١٣٧ .

(٢) العبودية المختارة ص ٧٨ .

(٣) العبودية المختارة ص ٧٢ بتصرف .

(٤) المصدر السابق ٧٤ بتصرف .

قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾! [1]

فالأمر (ليس فرق المشاة ، ولا قوة الأسلحة ، تحمي الطغاة ، بل أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه ، ويشدون البلد كله إلى مقود العبودية ، يتقربون أو يقربهم إليه ، ليكونوا شركاء جرائمه ، وقواد شهوته ولذته ، هؤلاء الخمسة أو الستة يدربون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع ، وينتفع في كنفهم ست مئة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية ، ثم هؤلاء الست مئة يفسدون معهم ستة آلاف تابع ، يوكلون إليهم مناصب الدولة ، والتصرف في الأموال ، ويتركونهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء إلا في ظلهم ، ولا بعدا عن طائلة القانون إلا عن طريقهم ، ليطيحوا بهم متى شاءوا ، ليصبح ليس فقط الستة أو الستة آلاف بل الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل ، لو شده لجذبهم كلهم إليه ، فصار خلق المناصب الجديدة ، وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه ، كل ذلك لا من أجل العدالة ، بل من أجل أن تزيد سواعد الطاغية ، فإذا الذين ربحوا من الطغيان ، يعدلون بل يعادون في النهاية من يؤثرون الحرية ، فما إن يستبد ملك حتى يلتف عليه حثالة المملكة وسقطها ، ليصبحوا أنفسهم طغاة مصغرين في ظل الطاغية الكبير)[2] .

وما ذكره هذا المفكر الفرنسي قبل أربعة قرون عن الطغاة وبطانتهم وحال المجتمع معهم يكاد يكون وصفا دقيقا لأوضاع أغلب المجتمعات والدول العربية اليوم ليصدق فيها حديث (لتتبعن سنن من كان قبلكم فارس والروم)[3]!

ولهذا حذر القرآن من الطغيان والركون إلى الطغاة كما في قول الله تعالى ﴿ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[4] ، ودعا إلى اعتزال الظالمين (فلا يكن لهم شرطيا ولا عريفا ولا جابيا ولا خازنا)[5]!

بين (تحرير الإنسان) و (الحرية أو الطوفان):

إن للخطاب السياسي الإسلامي أصوله التي ترفض رفضا قطعيا كل هذه الصور الطاغوتية وما ينتج عنها من استبداد وفساد ، فهي تتعارض مع أصول الخطاب السياسي

---

(١) الأعراف ١٢٧ .

(٢) العبودية المختارة ص ٨١ بتصرف .

(٣) صحيح البخاري ح رقم ٦٨٨٨ .

(٤) هود ١١٣ .

(٥) رواه الموصلي في المسند ح ١١١٤ ، وعنه ابن حبان في صحيحه ح ٤٤٩٦ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (رجاله رجال الصحيح خلا عبدالرحمن وهو ثقة) .

الإسلامي العقائدية الإيمانية ، التي جاءت أصوله العملية التشريعية لتعبر عنها ، وتنبثق منها ، وتقوم عليها ، وقد بدأت في بيان هذه الأصول العقائدية الإيمانية في هذا الكتاب ، ثم أعدت بيان الأصول العلمية للخطاب السياسي التي وردت في (الحرية أو الطوفان) ، مع تفصيل القول فيها ، وكشف عللها ، وتجلية غاياتها ومقاصدها ، وبيان مشكلاتها ، وقد رأيت جمعها أولا في باب على حدة ، ثم تفريقها بحسب ظهورها في عصر الخلفاء الراشدين ، ومدى التزامهم بالعمل بها ، وربما وقع بعض التكرار وهو مقصود هنا ، لما للموضوع من أهمية وخطورة ، تجعل من البيان والتفصيل فيه أمرا ضروريا ، خاصة عند من يرونه يصطدم بأصول عقائدية عندهم ، لا أصل لها إلا أقوال الرجال وآراؤهم واجتهاداتهم ، التي كانت وليدة عصورهم وظروفهم الخاصة بهم ، والتي قلدهم فيها من جاء بعدهم ، فصارت بالتقليد أصولا عقائدية ، بعد أن كانت بالاجتهاد آراء فقهية ، لتكون النتيجة هذه العبودية التي تعيشها الأمة ، باسم اتباع الكتاب والسنة وسلف الأمة ، ولتصبح سنن الأكاسرة والقياصرة التي حذر منها النبي ﷺ ، هي السنن التي تحكم حياة أكثر مجتمعاتنا اليوم ، بل هي السنن التي يتصدى للدفاع عنها الأحبار والرهبان والأئمة المضلون ، وهي التي عليها يعضون ، وبها يتمسك المُفتون والمفتونون ، الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويصدون عن سبيل الله ، وسنن رسوله ، وهدي الخلفاء الراشدين المهديين ، ويبغونها عوجا ، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، الذين ورد فيهم الحديث (يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، ويلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، قلوبهم قلوب الذئاب)[1] .

فهم الذين أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم ، فعبّدوهم للطغاة والظالمين من الرؤساء المستبدين والغزاة المحتلين ، باسم السنة والدين ، حتى احتل العدو الطاغية أرضهم ، واستولى على ثروات بلادهم ، وسفك دماءهم ، وانتهك أعراضهم ، وسامهم سوء العذاب ، وعلماء الفتنة ومراجع الباطل يأمرونهم بالسمع والطاعة لولي الأمر المحكوم من قبل العدو المحتل ، ذلك العدو الذي له الحل والعقد ، والبسط والشد ، والأمر في الواقع أمره ، والقول قوله ونهيه!

وقد جاء في الحديث (تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها)قالوا أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال (لا بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، حب الحياة وكراهية الموت) .[2]

---

(١) الترمذي ح ٢٤٠٤ .

(٢) أحمد في المسند ح ٢٢٠١٩ ، وأبو داود ح ٤٢٩٧ .

فتحققت النبوة في أوضح صورها ، حتى صار شذاذ الآفاق يأتون من كل حدب وصوب ليستحلوا حرماتهم ، وينتهبوا ثرواتهم ، وصارت حكومات الدول التي لم يسمع بها العالم ، ترسل جيوشها من أقصى الأرض ، لتطأ أقدامها أرض العرب والمسلمين ، وتحتلها ، وتدك المدن على رؤوس أهلها ، وتتداعى للمشاركة في الغنيمة الباردة ، والقصعة الواسعة ، وكأنه لا دول فيها ، ولا حكومات لها ، ولا شعوب عليها؟

حتى إذا هب أهلها دفاعا عن النفس والعرض ، وذودا عن المال والأرض ، وهو الحق الذي أوجبته كل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية ، إذا الأحبار والرهبان وعلماء السوء ومراجع الباطل الذين صاروا أربابا من دون الله يتصدون بالفتاوى الكاذبة الخاطئة ليحرموا على الأمة ما توجبه العقول والشرائع والقوانين ، ولينا صروا العدو المحتل بالفتاوى وباسم الدين!

فإذا الذي يروج بينهم دين فاسد لا يمت لدين الإسلام الذي جعل ذروة سنامه الجهاد بصلة ، بل هو القاديانية الجديدة!

وقد جاء في النبوءة الأخرى ما يؤكد أنهم ليسوا على دين ، كما في الحديث (إذا تركتم الجهاد وتبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه أو لا يرفعه عنكم حتى تعودا إلى دينكم)[1] ، فدل على فساد دينهم الذي هم عليه ، وأنه لا صلاح لهم إلا بعودتهم للإسلام الحق الذي حررهم بالتوحيد والجهاد ، حتى استعبدهم الملوك والطغاة ، الذين صاروا وعلماء الفتنة أربابا من دون الله!

وليس الجهاد هنا مقصورا على جهاد العدو الخارجي بل وكذلك جهاد الاستبداد الداخلي كما في حديث (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ، وكما في حديث (سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر)!

لقد جاء هذا الكتاب (تحرير الإنسان) ، لا كدراسة تاريخية كما هو (الحرية أو الطوفان) ، بل دراسة عقائدية أصولية للخطاب السياسي الإسلامي ، وقد اجتهدت في هذا الكتاب ، في بيان أصول هذا الخطاب ، كما جاءت في القرآن والسنة ، وكما بينها النبي ﷺ عمليا ، وكما مارسها الخلفاء الراشدون المهديون بعده سياسيا ، والذي يعد عصرهم النموذج البشري لنظام الحكم في الإسلام بعد عصر النبوة ، حيث تتجلى مبادئ الخطاب السياسي الإسلامي في العهد الراشدي في أوضح صورها ، على يد خلفاء النبي ﷺ ، الذين كانت كل ممارساتهم بشرية محضة ، بخلاف عهد النبوة الذي كان النبي فيه ﷺ يجمع بين كونه نبيا معصوما ، وإماما مجتهدا ، فلم تتمحض الممارسة البشرية والتطبيق

---

(١) أبو داود ح ٣٤٦٢ ، والبيهقي ح ١٠٧٤٩ .

العملي الاجتهادي لمبادئ الخطاب السياسي الإسلامي ، إلا في عهد الخلفاء الراشدين الذين كانت الأمة معهم رقيبة عليهم ، تسددهم وتقومهم ، والذين أمر النبي ﷺ باتباع هديهم ، والاقتداء بسننهم ، في هذا الباب ، كما جاء في الحديث الصحيح (أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة)[1] ، وفي لفظ ابن ماجه : (عليكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، وسترون من بعدي اختلافا شديدا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء . . .) ، ونحوه عند الترمذي ، وفي لفظ آخر عند ابن ماجه : (قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك ، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وعليكم بالطاعة ، وإن عبدا حبشيا) .

فهذه الأحاديث وغيرها كثير تتحدث عن سنن سياسية حول الخلافة والسمع والطاعة ، ومعلوم أن أبرز سنن الخلفاء الراشدين وأظهرها على الإطلاق هي سننهم في باب الإمامة وخلافة النبي ﷺ ، فلفظ (الخلفاء الراشدين)الوارد في الحديث ، وهذا الاشتقاق (خ ل ف)يشعر ويفيد بأن المقصود هو الاقتداء بهم في باب خلافتهم للنبي ﷺ في شئون الإمامة وسياسة الأمة على وجه الخصوص ، إذ هذا هو الوصف الجامع للخلفاء الراشدين ، وهو كونهم خلفاء للنبي ﷺ في أمته بعده ، ولولا ذلك لقال عليكم بسنتي وسنة الفقهاء أو العلماء من أصحابي ، والدليل على أن المقصود بسنة الخلفاء هي سننهم في باب الإمامة على وجه الخصوص هو أن الانحراف والاختلاف الذي حذر منه النبي ﷺ في أول الحديث : المقصود به هنا الانحراف في باب الإمامة ، بدليل حديث : (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا عاضًا ، فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكا جبرية ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)[2] .

فحدد مراحل الانحراف بالخروج عن سنن النبوة والخلافة الراشدة في باب الإمامة ، وتحولها إلى ملك جبري ثم إلى ملك عضوض ، ولهذا جاء في الحديث الآخر (أول من يغير

---

(١) رواه أبو داود ، ح رقم (٤٦٠٧) واللفظ له ، والترمذي ، ح رقم (٢٦٧٨) ، وابن ماجه ، ح رقم (٤٢-٤٤) وقال الترمذي : (حسن صحيح) .

(٢) أحمد في المسند ٢٧٣/٤ ، وهو صحيح الإسناد . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح رقم (٥) .

سنتي رجل من بني أمية)[1] ، وقد تحقق ذلك فعلا فإن وقوع الانحراف في هذا الباب وقع في عهد بني أمية ، فكان أول من استولى على الإمامة والأمة قهرا بالسيف هم من بني أمية ، وهم أول من عطلوا الشورى ، وأول من استأثروا بأموال الأمة ، وكل ذلك يؤكد أن المقصود بحديث (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين) ، هو التمسك بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون في باب سياسة الأمة على وجه الخصوص ، وأن الاختلاف الذي حذر منه أشد تحذير هو الانحراف الذي وقع في هذا الباب خاصة ، وهو العدول عن سنن الخلفاء الراشدين وهديهم في سياسة شئون الأمة وفق ما جاء في القرآن والسنة من العدل والقسط ، إلى سنن القياصرة والأكاسرة والجبابرة بما تقوم عليه من الظلم والقهر ، كما في حديث (ثم يكون ملكا جبريا ثم ملكا عضوضا) ، وهو أول انحراف وقع في الأمة وأخطره على الإطلاق ، وهو السبب الذي أدى إلى الضعف والانحلال الذي أصاب الأمة ، وقد جاء في الحديث الصحيح (لتتبعن سنن من كان قبلكم . . . قالوا فارس والروم يا رسول الله؟ قال : نعم) ، وفي حديث آخر (اليهود والنصارى) .[2]

قال الحافظ ابن حجر (حيث قال فارس والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الرعية)[3] .

فكما بُعث النبي ﷺ لهدم سنن الأحبار والرهبان وإبطال ربوبيتهم الزائفة وعبودية الناس لهم وطاعتهم في أمر الدين ، كذلك بُعث ﷺ لهدم سنن الأكاسرة والقياصرة الجائرة وإبطال عبودية الناس لهم وطاعتهم في أمر الدنيا!

إن السنة المقصودة في حديث (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي) ، وحديث (أول من يغير سنتي رجل من بني أمية) ، وحديث (يكون بعدي أمراء لا يقتدون بهديي ، ولا يستنون بسنتي) ، هي سننه ﷺ في الخطاب السياسي وفي باب الإمامة ، وما جاء به من العدل والقسط والحق والخير والرحمة في باب سياسة الأمة ، وهي السنن التي حذر أشد التحذير من تركها ، واتباع المحدثات التي تخالفها من سنن الفرس وأكاسرتهم ، وسنن الروم وقياصرتهم ، التي خالف فيها هديه هديهم ، وسنته سنتهم .

ويؤكد ذلك أن لفظ المحدثات في قوله (وإياكم ومحدثات الأمور) تطلق ويراد بها في لغة

---

(١) صحيح الإسناد . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ح رقم (١٧٤٩) ، قال الألباني :لعل المراد بالحديث تغيير نظام الخلافة وجعله وراثة!وهو الذي لا شك فيه كما سيأتي بيانه .

(٢) صحيح البخاري ح رقم ٧٣١٩ و٧٣٢٠ ، وصحيح مسلم ٢٦٦٩ .

(٣) افتح الباري في شرح هذا الحديث .

العرب ما يحدثه المفسدون في الأرض ، الباغون على الحق والعدل ، والخارجون على القانون والدولة ، ومنه قوله ﷺ في شأن حرمة المدينة (من أحدث فيها حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله)[1] والإيواء عادة يكون للخارجين عن السلطة أو القانون ، وما جاء في حديث بني قريضة (لم تقتل منهم امرأة إلا واحدة كانت قد أحدثت حدثا) أي قتلت نفسا ، ومنه قول المثنى بن حارثة الشيباني للنبي ﷺ (إنا قد عاهدنا كسرى على أن لا نحدث حدثا ولا نؤوي محدثا) أي خارجا على النظام والقانون والسلطة ، وما جاء في الأثر (إن الحرم لا يؤوي محدثا) ، فهذه النصوص تؤكد أن الإحداث بمعنى الاعتقادات والآراء التي تخالف السنة هو اصطلاح حادث لا يعرف في كلام العرب وكلام الشارع ، وإن كان يدخل في عموم النهي تبعا لا أصالة!

فالحديث وارد أصلا في شأن السنن النبوية السياسية ووجوب الالتزام بما جاءت به من الحق والعدل ، وفي شأن الخروج عنها والإحداث والإفساد في الأرض بالظلم والبغي أو الإحداث والتغيير في الأمر ، وهو يطلق ويراد به الحكم والسلطة والأحكام التي جاء بها الإسلام ، ومثله حديث (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، كما سيأتي بيانه .

وقد صارت الثقافة السلطانية التي شاعت بين كثير من العلماء تفسر الأحاديث التي تنهى عن الإحداث في الدين تفسيرا مختزلا ، وتقصرها على البدع دون الانحراف في باب الإمامة ، مع أنه هو المقصود أصلا من تلك الأحاديث ، والوعيد الوارد فيها قد يكون أشد في حق الظلمة والطغاة ، كما قال ابن عبد البر (وكل من أحدث في الدين ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين . . . وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق وقتل أهله وإذلالهم ، كلهم مبدل يظهر على يديه من تغيير سنن الإسلام أمر عظيم ، فالناس على دين الملوك ، ورحم الله بن المبارك فإنه القائل :

وهل بدل الدين إلا الملوك
وأحبار سوء ورهبانها

وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال : من أراد الله فأخطأ أي أهل البدع أقل فسادا ممن جاهر بترك الحق المعلنين بالكبائر المستخفّين بها .

وقد قال بن القاسم قد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء ، وصدق ابن القاسم ، ولا يعتبر أعظم مما وصفنا عن أئمة الفسق والظلم)[2] .

لقد كانت السلطة في عهد الخلفاء الراشدين كما شهد لها كثير من المستشرقين

---

(١) صحيح البخاري ح رقم ١٧٦٨ ، ومسلم ح رقم ١٣٧٠ .

(٢) الاستذكار ١٩٥/١ .

المنصفين ، سلطة شورية تخضع لسلطان الأمة ورقابتها واختيارها ، كما يقول المؤرخ الأمريكي لوثروب ستودارد (كانت الخلافة في الحجاز شورية قائمة على قواعد الإسلام الصحيحة ، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر ، وولت كلا منهما الخلافة ، وكلاهما كان ينزل على رأي الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم)[1] .

وكما علق عليه أمير البيان شكيب أرسلان بقوله (الخلافة في الإسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وإنما هي رعاية عامة للأمة لإقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوي عن الضعيف ، في الداخل ، وصيانة الإسلام ودفع العدوان عليه من الخارج ، وهي لا تنعقد إلا بإرادة الأمة ، والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة ، لا سلطان له عليها إلا منها ، وقد فهم لوثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم ، بخلاف كثير من الأوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان من الأمة إنما هو من الأوضاع الغربية الأوربية ، ومن أغرب الأمور أن كثيرا من المسلمين يتابعون الإفرنج في هذا الوهم ، ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الإسلامي انطباقا على الشرع ، لرأوه أمرا شعبيا محضا ، وديمقراطيا بحتا ، وأبعد شيء عن السلطان المطلق)[2] .

لقد خفي هذا المعنى المراد من الحديث على كثير من أهل العلم مع وضوح المقصود من الحديث (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور) ، إذ أنه لا توجد سنن للخلفاء الراشدين يمكن الاقتداء بها ، أو يُخشى من تركها ومخالفتها ، إلا ما كان من سننهم في باب الإمامة خاصة ، حيث إنهم لا يعرف لهم كبير سنن في باب العبادات أو العقائد ، بل ولا يمكن أن يكون لهم سنن في هذين البابين ، إذ أمر العقائد والعبادات قائم على التوقيف والاتباع للنبي ﷺ ، فلا اجتهاد فيهما ، ولا متابعة فيهما لغير النبي ﷺ ، وهذا بخلاف سننهم المشهورة في باب سياسة الأمة ، فإنها من الخطورة بالمكان الذي يجعل من الحث على التمسك بها ، وترك ما خالفها ، أمرا معقولا مفهوما من الحديث ، وهو ما أثبته التاريخ وواقع الأمم والمجتمعات الإنسانية كلها ، فإنه ما حادت أمة عن سنن العدل والحرية والشورى إلى الظلم والعبودية والاستبداد إلا أدى ذلك إلى سقوط حضارتها ، وزوال دولتها ، ووقوع البأس بينها ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، ترجمة نويهض ، وتعليق الأمير شكيب أرسلان ٥/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٤٠/١ .

الضعيف أقاموا عليه الحد)[1] .

فحصر سبب زوال الأمم السابقة بالظلم ، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فله سبحانه سننه الاجتماعية في نشأة المجتمعات الإنسانية ، وقوتها وضعفها ، ونهوضها وسقوطها ، التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها ، ولا تنفك أسبابها عن مسبباتها ، كما قال سبحانه ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ ، وقد جعل الله سبحانه ظلم الإنسان سببا لخراب العمران ، ومفضيا إلى ضعف الأمم وزوال السلطان ، وسقوط المجتمعات الإنسانية ، كما قال تعالى ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ ، أي ما كان الله ليهلك أهل القرى بسبب الظلم والشرك به ما داموا مصلحين بإقامة العدل والحقوق فيما بينهم ، والإصلاح في شئون حياتهم ، وهذا معنى قول شيخ الإسلام ابن تيمية (إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة)[2] ، وقال أيضا (وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم ، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وان لم تشترك في أثم ، ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة ، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام ، وقد قال النبي ﷺ (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم)فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة – أي إذا كان مسلما – وذلك أن العدل نظام كل شيء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[3] .

وتاريخ الأمم والشعوب وحاضرها أصدق شاهد على صحة هذه السنة الاجتماعية واطرادها ، والقياس الصحيح قاض باعتبار هذه القاعدة واشتراطها ، فحيثما وجد العدل والإصلاح وجد الاستقرار والازدهار ، وحيثما وجد الظلم والفساد تحقق السقوط والانهيار .

ومن السنن الإلهية الاجتماعية أن جعل الله مناط ذلك كله بيد من يملك القدرة على تحقيق الإصلاح وإقامة العدل ، وهو من بيده السلطة والدولة لا عامة الناس ، كما قال تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾ وفي قراءة (أمّرنا) أي جعلناهم أمراء فيها فأفسدوا فيها فدمرناها عقوبة لهم على ظلمهم وطغيانهم .

---

(١) صحيح البخاري ح ٤٣٠٤ و ٢٦٤٨ ، ومسلم ح ١٦٦٨ .

(٢) مجموع الفتاوى ٦٣/٢٨ .

(٣) مجموع الفتاوى ١٤٦/٢٨ .

ومن هنا كان من الواجب تتبع أصول الخطاب القرآني والنبوي وسنن الخلفاء الراشدين ، ومعرفتها ، وبعثها من جديد ، والدعوة إليها ، والجهاد في سبيلها ، لتكون الخطاب الذي يسود واقع حياة المسلمين ، الذين هم أحوج الأمم لها ، فإن تلك الأصول مع ظهورها في القرآن ، والسنة النبوية ، وسير الخلفاء الراشدين ، إلا أنه قد خفي أمرها ، وطمست معالمها ، وتم تحريفها بالتأويل والتبديل ، حتى لم تعد النصوص التي وردت في شأنها تفهم على الوجه الذي يراد منها في وجوب اتباعها ، فصار كل من يستشهد بالحديث الشريف على وجوب اتباع السنة والاقتداء بسنن الخلفاء الراشدين لا يخطر في باله ، ولا يعبر في خياله ، شيء مما قصده النبي ﷺ من هذا الحديث!حتى أنه لا يكاد أكثر أهل العلم فضلا عن العامة يعرفون ما هي سنن الخلفاء الراشدين المهديين ، لا على سبيل التوهم ولا على وجه اليقين!!

ولعل هذا هو السبب الذي جعل الشارع يؤكد خطورة الأمر ، ويحذر من الاختلاف والانحراف عن هذه السنن ، لكونها عرضة للطمس والتحريف على يد الملوك والأحبار والرهبان ، الذين يشايعونهم في نشر الثقافة والمفاهيم التي تحقق إضفاء الشرعية على ممارساتهم مهما انحرفوا وبدلوا! ولهذا حذر النبي ﷺ من خطرهم فقال (أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون)[1] ، وفي لفظ (إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)[2] ، وجاء في حديث آخر (أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث : حيف الأئمة . . .)[3] ، وفي رواية (جور السلطان)!

وجاء أيضا : (أتاني جبريل فقال : إن أمتك مفتتنة من بعدك ، فقلت من أين؟ قال : من قبل أمرائهم وقرائهم ، يمنع الأمراء الناس الحقوق فيطلبون حقوقهم فيفتنون ، ويتبع القراء هؤلاء الأمراء فيفتنون . . . .) .[4]

وقد حذر النبي ﷺ كعب بن عجرة فقال (أعاذك الله من إمارة السفهاء!قال وما إمارة السفهاء يا رسول الله؟ قال أمراء يكونون بعدي ، لا يقتدون بهديي ، ولا يستنون بسنتي ،

---

(١) أحمد ح ٢٧٠٧٤ ، وصحيح ابن حبان ٤٤٨٠ ، وبوب ابن حبان عليه باب (تخوف النبي ﷺ على أمته الانقياد للأئمة المضلين) . .

(٢) أبو داود ح ٤٢٥٢ ، وابن ماجه ح ٣٩٥٢ ، وأصله في صحيح مسلم ح ٢٨٨٩ .

(٣) رواه ابن بطة في الإبانة رقم ١٥٣٣ من حديث ابن محيريز مرفوعا مرسلا ، وابن عساكر ٤٠١/٥٨ من حديث أبي محجن مرفوعا ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٢١٤ ، وابن أبي عاصم في السنة رقم ٣٢٤ من حديث جابر بن سمرة وفيه (حيف السلطان) ، وصححه الألباني بشواهده .

(٤) رواه الإسماعيلي كما ذكره الحافظ في فتح الباري ١٦/١٣ ح ٧٠٥٢ ، وأبن أبي عاصم في السنة رقم ٣٠٣ ، وأبو نعيم في الحلية ١١٩/٥ ، والحديث ضعيف الإسناد صحيح المعنى بشواهده .

فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا مني ولست منهم ، ولا يردون علي حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم)[١] .

فالمقصود أصلا في هذه الأحاديث الأمراء ، والمقصود بسننهم التي حذر منها النبي ﷺ أي ما يسنونه للأمة في باب السلطة ، وما يسوسونها به ، وقد سألت امرأة أبا بكر فقالت : يا خليفة رسول الله ، ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ فقال : بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم . قالت : وما الأئمة؟ قال : (أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس)[٢] .

وقال عمر وهو على فراش الموت (إن الناس لا يزالون بخير ما استقام لهم ولاتهم وهداتهم)[٣] ، وقال ابن مسعود (لن تزالوا بخير ما صلحت أئمتكم)[٤] ، وقال القاسم بن مخيمرة (إنما زمانكم سلطانكم ، فإذا صلح سلطانكم صلح زمانكم ، وإذا فسد سلطانكم فسد زمانكم)[٥] .

وقال ذو عمرو الحميري لجرير بن عبدالله البجلي حين توفي النبي ﷺ واستخلف المسلمون أبا بكر (يا جرير إن بك علي كرامة ، وإني مخبرك خبرا إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تآمرتم (أي تشاورتم) في آخر ، فإذا كانت بالسيف كانوا ملوكا يغضبون غضب الملوك ، ويرضون رضا الملوك)[٦] .

فقد أكد أبو بكر أن صلاح الأمة مرهون بصلاح الأئمة واستقامتهم ، لما لهم من القدرة الواسعة على التأثير في ثقافة المجتمع ، وقيمه ، ومفاهيمه ، وفساده منوط بفسادها ، وقد جاء في المثل الواقعي : الناس على دين ملوكها!

وقد عبر عن هذا المعنى الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك بقوله :

---

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف ٣٤٥/١١ بإسناد صحيح ، وعنه أحمد بالمسند ٣٢١/٣ ، وابن حبان في صحيحه رقم ٤٥١٤ .

(٢) رواه البخاري ح ٣٨٣٤ .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٧٤٤١ بإسناد صحيح .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٧٤٤٠ .

(٥) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٧٤٤٢ .

(٦) ابن أبي شيبة في المصنف رقم ٣٧٠٢٣ و٣٧٢٥٩ ، ورواه عن ابن أبي شيبة البخاري في صحيحه رقم ٤١٠١ ، وأحمد وابنه في المسند رقم ١٩٢٤٤ .

وهـل أفــــــــــــــــــــد الـديـن إلا المـلـوك
وأحـــــبـــــار ســـــوء ورهبـــــانهـــــا ؟ !

وقد زعم فرعون أنه إنما يتصدى لموسى حفاظا على دين الشعب المصري وأمنه واستقراره ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾[1]!

وكذا ادعى الملأ والسادة من قريش الخشية على الآلهة حين تصدوا لدعوة النبي ﷺ ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم﴾[2] ، فقد ظهروا بمظهر من يخاف على الدين ، لمعرفتهم بمدى تأثير الدين وسلطانه على النفوس البشرية ، ومدى خطورة استثارة الشعور الديني!

لقد أصبح العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة يواجه اليوم تحديات كبرى ، بعد عقود من الاستبداد والاضطهاد والاحتلال ، حتى إذا تحركت شعوبه نحو تحقيق حريتها ، ونهضت في سبيل تحررها ، وصون كرامتها ، فإذا هي بين خيارين ، إما الديمقراطية الغربية بكل تناقضات الديمقراطية الغربية مع دينها وقيمها طمعا في حريتها ، وإما الصبر على الأنظمة الاستبدادية ، حفاظا على هويتها!

فإما الحرية بلا هوية ، أو الهوية بلا حرية ولا كرامة ولا إنسانية!

إنه الخيار المر الذي يعرضه عليها الاحتلال الأجنبي منذ الحرب العالمية الأولى إلى اليوم الذي يأبى عليها العودة لاستقلالها وهويتها ، والاستبداد الداخلي الذي يأبى عليها سيادتها وحريتها ، وعلماء الفتنة ودعاتها الذين يدعونها للاستكانة وعدم الخروج على هذا وذاك!

وكأن الإسلام عاجز عن أن يكون البديل والحل لهذا الواقع ، وإنه لقادر ، بل لا خيار أمام الأمة سواه ، إذا ما تم بعثه من جديد ، وفق أصول الخطاب القرآني والنبوي والراشدي .

لقد فشل المفكرون العرب الحداثيون والسياسيون الليبراليون والاشتراكيون على حد سواء في العالم الإسلامي والعربي في تحقيق مشروع النهضة والمعاصرة والحداثة ، وظنوا أن مشكلة العالم الإسلامي والعربي هي في التخلف العلمي والتقني ، دون أن يدركوا بأن الإشكالية أعمق مما يتصورون ، فهي تتمثل في أزمة هوية كبرى يعيشها العالم الإسلامي منذ سقوط الدولة العثمانية التي كانت ، مدة أربعة قرون ، الجامعة لوحدته ، والمحافظة على هويته ، والحامية لدولته ، ومنذ فرض الاستعمار الغربي على شعوبه أنظمة حكم بديلة

---

(١) سورة غافر ٢٦ .

(٢) سورة ص ٦ .

قطرية وطنية وقومية علمانية ، عجزت أن تعبر عن هويته ، ولم تقدر على حمايته ، ولا المحافظة على كرامته ، فظل العالم الإسلامي يعيش صراعا داخليا ، أدى إلى عدم استقراره ، وتعطل قدراته ، واستنفاد طاقة قواه السياسية والاجتماعية والفكرية في صراعات عقيمة فيما بينها كان المستفيد منها الاستبداد الداخلي ، والاحتلال الأجنبي الخارجي!

لقد غاب عن الحداثيين أنه يستحيل تغيير مجتمع بثقافة أجنبية عنه ، وقيم دخيلة عليه من خارج ثقافته وقيمه ، وأنه يجب لتحقيق التغيير فيه نحت ثقافته من الداخل ، والبحث عن العناصر الحية فيها ، وبعثها لصالح مشروع التغيير والتطوير ، ليتقبلها المجتمع ويتفاعل معها دون شعور بالاغتراب أو تخوف الإثم ومن ثم الرفض .

لقد نجحت الأنظمة الاستبدادية الرجعية على اختلاف أطيافها في العالم العربي عسكرية كانت أو ملكية أو حزبية شمولية في إدراك أهمية توظيف دين المجتمع وثقافته وأدبه لصالحها ، في الوقت الذي أخفق فيها المفكرون والاصلاحيون السياسيون في مواجهتهم للاستبداد في إدراك هذه الحقيقة ، حين توهموا أنه بالإمكان تجاوز دين المجتمع وقيمه الروحية والثقافية في تحقيق التغيير ، فكانت الأنظمة الاستبدادية الرجعية مع فسادها وتخلفها أذكى وأقرب للمجتمعات وثقافتها واحترام هويتها وخصوصيتها من المفكرين والإصلاحيين الحداثيين!

إن المدخل الصحيح للتغيير والإصلاح هو في مخاطبة الأمة من خلال لغتها التي تفهمها ، وثقافتها التي تعبر عنها ، وروحها التي تحيا بها ، فلم ولن تتفاعل الأمة مهما حاول الحداثيون مع عبارات فولتير وماركس ولينين ، كما تتفاعل مع كلمات عمر وعلي وصلاح الدين!

ومازال ثلاثمائة مليون عربي يتطلعون إلى عودة صلاح الدين من جديد ، ومازالوا في حالة ترقب وانتظار لقيام دولتهم وعودة وحدتهم واستعادة كرامتهم!

إنه لا سبيل لتحقيق النهضة والإصلاح إلا بالبحث عن خطاب سياسي وفكري وثقافي تتفاعل مع الأمة وتتقبله وتضحي من أجله ، دون شعور بالاغتراب الروحي والمعنوي ، ولن تتقبل الأمة أي خطاب سياسي آخر إلا على أساس أنه أحسن الأسوأ ، أو على أنه حل مرحلي مؤقت تحت ضغط الواقع ، لتنتظر الفرصة السانحة لعودة الإسلام من جديد ، ومن هنا كان الواجب على العلماء والمفكرين أن يسهموا في بعث وبلورة خطاب سياسي يحقق للأمة حريتها ، ويعبر عن هويتها ، ويحافظ على خصوصيتها ، قبل أن تأت الفرصة السانحة ولما يتشكل مثل هذا الخطاب ، ليعود الاستبداد والاستعباد من جديد باسم الدين والتوحيد!

لقد اجتهدت في كتابي (الحرية أو الطوفان) أن أجلي هذا الموضوع وأبعثه من جديد ،

وأتتبع الخطاب السياسي الشرعي ، ومراحله التاريخية ، وأكشف أصوله وقواعده في مرحلة التنزيل ، وما طرأ عليه من تغير وانحراف في مرحلة التأويل ، ثم مرحلة التبديل ، وقد جاءتني أسئلة كثيرة عن بعض مشكلاته ، وطلب بعضهم شرحه وتفصيله ، وطلب آخرون اختصاره وتهذيبه ، ولقد كان من أكثر الأسئلة ورودا علي هو : من سبقك إلى هذا القول الذي جئت به في كتاب (الحرية أو الطوفان)؟ وكيف يخفى مثل هذا الأمر على علماء الأمة قرونا طويلة؟ وهل يعقل أن تطبق الأمة عصورا مديدة ، وقرونا عديدة ، لا يتنبه علماؤها إلى ما ذكرت؟

وكان جوابي دائما هو : هل ما ورد في الكتاب حق أم باطل؟ فإن كان حقا فالواجب اتباعه بغض النظر عمن قاله ، فالحق أحق أن يتبع ، وإن كان باطلا ، فلن ينفعه موافقة من وافقه ، ولو أطبق على تأييده أهل العلم قاطبة ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج ، لا تنفعه المحاججة ولا تغني عنه الحجج!

هذا مع العلم أن كل ما أوردته من أصول للخطاب الراشدي هو ما ثبت ثبوتا قطعيا بالكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة ، وأن ما خالفه إنما هي اجتهادات بعض الصحابة ومن بعدهم بعد وقوع الفتنة ، والواجب في هذا الباب خاصة الرد إلى الأصول الصحيحة : كتاب الله المبين ، وسنة رسوله الأمين ، وسيرة خلفائه الراشدين .

وما في كتابي (الحرية أو الطوفان) من أصل ، ولا مسألة ، إلا وذكرت من أقوال الأئمة وسلف الأمة ما يوافق ما ذهبت إليه ، وإنما حال بين الناس وبين هذه الحقائق القرآنية والنبوية والراشدية مع وضوحها التقليد الأعمى ، ولهذا قدمت بين يدي الكتاب بحديث (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1] ، لحاجتنا إلى سنة أبينا إبراهيم في السؤال والتحري ، والبحث عن الحق ، والتجرد له .

نعم! ليس لي من العمل في هذا الباب إلا جمع الأصول المفرقة ، ورد الفروع عليها ، واستنباط عللها المنوطة بها ، وكشف زيف ما خالفها ، وبيان مشكلاتها ، والجمع بين ما تعارض منها ، حتى صار بحمد الله علما جديدا ، وفنا فريدا ، لا يستغني عنه عالم شرعي ولا مصلح سياسي .

وقد أشكل على بعض من يدعون العلم ما جاء في كتاب (الحرية والطوفان) ، وظنوا أنه قد يتعارض مع ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة ، ولقد حال بينهم وبين فهم القرآن وتدبر آياته ، ظنهم بأن القرآن إنما جاء لمواجهة العرب وجاهليتهم ، وشركهم وأوثانهم ، وكأنه

---

(١) صحيح البخاري ح ٤٥٣٧ ، وانظر مقالي (التبيان فيما أشكل من الحرية والطوفان) ، في بيان وشرح هذا الحديث العظيم ، ومعنى الشك الذي نحن أحق من إبراهيم به .

لا جاهلية إلا عند العرب ، وكأن الإسلام لم يأت إلا لهم فقط!مع أن الجاهلية في غيرهم أشد ، وقد عمت الجاهلية أمم الأرض كلها ، كما في الحديث الصحيح (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب)[1] ، فبعث الله لهم النبي الأمي بالحنيفية السمحة ، بعد أن اختلف أهل العلم والكتاب فيما بينهم ، فضلوا عن الحق ، وأضلوا الخلق ، وأفسدوا الدين وأولوه ، وجعلوه قراطيس وبدلوه ، فأصبحوا بين ضالين عن الحق ، وعاتين عليه ، فبعث الله النبي الأمي ليعلم أهل الكتاب ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ، وليضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث معه أمته الأمية ، لتحرر الخلق مما هم فيه من الظلم والعبودية للملوك والأوثان والأحبار والرهبان ، وأنزل عليهم القرآن هداية للخلق كافة ، ليخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى النور ، وليخلصهم من الطغيان والجور ، فمن لم يقرأ القرآن على هذا الأساس حيل بينه وبين فهمه ، وظن أن كل ما ورد فيه من تنديد بالشرك ، وإبطال للعبودية لغير الله عز وجل ، إنما المقصود به جاهلية العرب وشركهم ، لا كل جاهلية وشرك ، فإذا نظر في واقعه فلم يجد اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ظن أن العرب اليوم على حال خير من حال أهل الجاهلية ، وصار القرآن بين يديه كتاب تاريخ وقصص ، لا كتاب نور وهداية ، فلا يدرك بأن العرب اليوم في جاهلية كجاهلية الأمم الأخرى أو أشد يوم أن جاء الإسلام ، وأنهم اليوم في عبودية للملوك وخضوع لطغيانهم ، أشد مما كان عليه حال بني إسرائيل وشعب مصر مع فرعون ، وأشد من شرك العرب في جاهليتهم لأصنامهم وأوثانهم!

فصار حالهم شبيها بحال من قال عنهم ابن القيم : (لكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته ، ويظنه في قوم قد خلوا ، ولم يعقبوا وارثا ، وهذا هو الذي يحول بين القلب وفهم القرآن ، كما قال عمر بن الخطاب : (تنقض عرى الإسلام عروة عروة ، إذا ولد في الإسلام من لم يعرف الجاهلية) ، وهذا لأنه إذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن ، وما ذمه ، وقع فيه وأقره ، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية)!!

وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ) ، وقال (يوشك أن يرفع العلم) ، فقال زياد بن لبيد : وكيف يرفع العلم يارسول الله وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال (ثكلتك أمك يا ابن لبيد! إن كنت لأراك أفقه أهل المدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟)[2] .

---

(١) صحيح مسلم ح ٢٨٦٥ .

(٢) ابن ماجه ح ٤٠٤٨ ، وأحمد في المسند واللفظ له ، وقال ابن كثير في تفسير آية ٦٦ من المائدة (إسناد صحيح) وهو كما قال .

كما إن من أسباب هذا الجهل في هذا الباب عدم تدبر آيات الكتاب ، وما شاع بين أهل العلم من أن آيات الأحكام في القرآن نحو خمس مئة آية فقط ، وقد شرحها العلماء في كتب أحكام القرآن ، فصار ما وراء ذلك آيات وعظ وإرشاد وقصص ، لا يستفاد منها حكم فضلا عن أصل من أصول الحكم!

كما إن من أسباب هذه الفتنة التقليد للعلماء وإحسان الظن بهم واتخاذهم أربابا من دون الله ، فيتعاظم المقلدون المفتونون أن يتصوروا أن هؤلاء العلماء بشر مثلهم ، يعتريهم ما يعتريهم من خطأ وخور وضعف وجبن وغفلة وطمع ، فما إن تتلو القرآن وآياته القطعية حتى ينبري لك من المفتونين من يحاججك لا بالقرآن وهداياته وآياته ، بل بقول هذا الشيخ أو ذاك[1]!

كما ساهم بعض الكتاب والمفكرين من المسلمين في إشاعة القول بأن الإسلام لم يأت بنظام سياسي تفصيلي ، بل جاء بمبادئ عامة ، في آيات عديدة ، وترك التفصيل للاجتهاد البشري!

وسيتجلى لمن يقرأ (تحرير الإنسان) أن هذه الظنون كلها من أبطل الباطل ، بل إن سورة الشورى وحدها ، وهي سورة مكية ، تضمنت كل أصول الخطاب السياسي القرآني ، في أوضح بيان ، لم يشذ منها شيء ، في جل آيات السورة ، مع أن كتب الأحكام لا تكاد تذكر فيها إلا آية الشورى وحدها!

وكل ذلك بسبب التقليد الذي حال بين المسلمين وتدبر آيات القرآن المبين ، وفهم هداياته السياسية ، والاجتماعية ، والتشريعية .

خطة تقسيم الكتاب:

هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب على أربعة أبواب :

الباب الأول : في أصول الخطاب السياسي الإسلامي :

وجعلته في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : أصول الخطاب القرآني .

الفصل الثاني : أصول الخطاب النبوي .

---

(١) إذا أردت أن تعرف معنى العبودية واتخاذ البشر أربابا من دون الله فتأمل كيف يتوقف الملايين من المسلمين عن الدفاع عن وطنهم وحرماتهم ومقاومة الاحتلال الأجنبي الذي يحتل أرضهم طاعة لفتوى مرجع واحد ، وكيف يتوقف الملايين مثلهم عن رفض الاحتلال وقواعده التي تملأ أرضهم طاعة منهم لعلمائهم ، في عصر غيبة العقل الإسلامي عجل الله فرجه؟ !

الفصل الثالث : أصول الخطاب الراشدي .
الباب الثاني : سير الخلفاء الراشدين وسننهم .
الباب الثالث : المحدثات في الخطابين المؤول والمبدل .
الباب الرابع : في القواعد والضوابط الكلية للسياسة الشرعية .

هذا وقد التزمت في هذه الدراسة ما التزمته في سابقتها ألا أحتج إلا بالروايات الحديثية والتاريخية الصحيحة والمقبولة بذاتها أو بشواهدها ، وتركت ما خالفها من الموضوع والشاذ والمنكر ، مع أن عامتها هو مما تواتر تواترا قطعيا ، أو اشتهر اشتهارا تاريخيا يغني عن تتبع الأسانيد ودراستها ، غير أني اجتهدت في تحقيق الروايات وفق أصول علم الحديث وعلم التاريخ ، ولم أخرجها من كل مصادرها التي وقفت عليها ورجعت إليها ، بل أكتفي غالبا بما كان في الصحيحين بالاقتصار عليهما ، حين تكون الرواية في أحدهما وإن خرجته عشرات المصادر الحديثية وربما توسعت حسب حاجة الرواية للتتبع ، ولم أذكر في الحاشية إلا الخلاصة من الدراسة في الحكم على الروايات ، ولو ذكرت كل ما وقفت عليه ورجعت إليه من المصادر من كتب المتون والرجال والعلل ، وأسباب قبول أو رد هذه الرواية أو تلك ، لخرج هذا الكتاب بثلاثة أضعاف حجمه ، وإنما حملني على تجشم عناء البحث في تحقيق كل هذا الكم من الروايات : أمانة العلم ، والحقيقة التاريخية المظلومة ، وما أخذه الله على أهل العلم من الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه ، وما ترتب على شيوع كثير من الروايات الموضوعة من آثار خطيرة على حياة الأمة كما نعيشه اليوم ، وما شاهدته من ضعف في عامة الدراسات التاريخية والاجتماعية والفكرية التي تعرضت لدراسة هذه الحقبة من تاريخ الأمة ، إذ بنيت على كثير من الأوهام التاريخية التي لا مستند لها إلا أكاذيب الرواة وقصصهم آراء خطيرة واستنتاجات ما كان لها أن تكون لو كان لمن استنتجوها قدرة على تحقيق الروايات وتمحيصها لمعرفة ضعيفها وصحيحها ، وربما كانت أقصى أماني الباحث الموضوعي منهم أن يورد كل الروايات التي بين يديه مع تعارضها وتناقضها ، ليحللها ويدرسها ، فيخرج بالرأي ونقيضه ، ويتوصل للنتيجة ما يضادها ، دون أن يعرف القراء أين هي الحقيقة التاريخية ، وإنما حال بينهم وبينها مع مكانة بعضهم العلمية المرموقة القصور العلمي والمعرفي في علم الحديث والرجال والعلل ، ومعرفة مناهج أئمة النقد واختلافها ، ومعرفة أدوات البحث لدراسة الروايات وفق أصول علم الرواية ، كما لم ألتفت إلى اختلاف عقائد الرواة ، وتباين مذاهبهم ، إذ العبرة بالصدق والعدالة والضبط ، كما هو القول الراجح والصحيح عند أئمة النقد .

هذا وأسأل الله الثبات على الحق ، والعزيمة على الرشد ، وأن يجعلنا ممن يقولون الحق وبه يعدلون ، وأعوذ بالله من الحور بعد الكور ، ومن علم لا ينفع ، وأن أَضل أو أُضل ، أو أَزل

أو أُزل ، أو أَظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يجهل علي ، وأعوذ بك اللهم أن أكون ظهيرا للظالمين ، أو نصيرا للمجرمين ، وتولني في عبادك الصالحين آمين!

تم الشروع في تأليف هذا الكتاب مطلع رمضان المبارك سنة ١٤٢٦هـ اكتوبر سنة ٢٠٠٥م ، وتم الفراغ منه ضحى يوم الجمعة من ذي القعدة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ٢٠٠٥م .